حقوق المرأة في الإسلام مصانة

ويشمل على المباحث التالية:

- هل الإسلام أضاع حقوق المرأة السياسية والاجتماعية أم منحها لها؟
- الرجال قوّامون على النساء.
- قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228].
- هل في صالح المرأة أن تتكشف وتتبرج؟!

obeikandl.com

هل الإسلام أضاع حقوق المرأة السياسية والاجتماعية أم منحها لها؟

حقوق المرأة في الإسلام مصانة بشكل لا مثيل له في أي نظام، هل سمعت أخي القارىء أن عمر بن الخطاب لم يرهبه أحد في دولة المسلمين التي امتدت كثيراً في عهده، ولكن امرأة واحدة أرهبته في موقف واحد، فانظر كيف أنّ أمير المؤمنين لم يخطىء في شأنها ولم يضع عليها حقاً، مع أنها أغلظت له القول حتى هوّنت من شأنه كثيراً، فانظر كيف كان الموقف؟

كان عمر ﷺ قد صحب معه المصلي بن الجارود العبدي، وبينما هما سائران في الطريق وعمر واضعاً يده على كتف المصلي، لقيتهما امرأة من قريش وطلبت منهما الوقوف، ثم وجهت حديثاً حاداً غاضباً إلى عمر، وخاطبته بصيغة التصغير، قالت: كنا نعرفك لمدة طويلة (عُميراً) ثم صرتَ من بعد عمر أمير المؤمنين، وعندئذٍ نظر المصلي إلى المرأة منزعجاً من جرأتها ومتعجباً من صمت عمر، فكيف تخاطب هذه المرأة أمير المؤمنين بهذه الغلظة، إلّا أنها لم تعر نظراته اهتماماً، واسترسلت في حديثها: اتق الله يا ابن الخطاب، وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف

الموت خشي... وهذه المرة لم يتحمل المصلي كلام المرأة وهجومها على عمر، وزاد من انفعاله أنه رأى الدمع ينزل مدراراً من عيني عمر ﷺ وصوته يتهدّج بالبكاء. فصاح في وجهها: يا أمة الله، أبكيتِ أمير المؤمنين، وقبل أن يكمل كلامه أشار عليه عمر ﷺ أن يسكت، وأن لا يقاطعها ولايصيح في وجهها، ثم وجه عمر كلامه إلى المصلي بصوت يعلوه النشيج قائلاً: أتدري من هذه؟ واستشعر المصلي أهمية ومكانة المرأة من لهجة عمر وتأثره بما قالت، واستمر قائلاً: هذه خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من سمائه، فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي بها. وهذه المرأة هي التي نزل في شأنها قول الله تعالى في أول سورة المجادلة خطاباً إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]. ونزلت بعد هذه الآية الكريمة ثلاث آيات تحمل أحكام الظهار.

ونائلة زوجة عثمان بن عفان ﷺ كتب عنها الدكتور أحمد الكبيسي ويقول[1]: مثال آخر للمرأة التي كان لها دور في الوعي السياسي، و(نائلة) هي «**بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية**» وكانت مثالاً نموذجياً في العقل والفصاحة والجمال والرأي السديد. وكانت تشهد مع زوجها عثمان ﷺ مجالس الرأي ومواقف الحزم، وندوات التدبير. ومن ذلك: أن عثمان بن

(1) مجلة العربي، عدد 339، سنة 1978، ص: 30.

عفان ﷺ خطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة، فَرقَّ الناس له يومئذ ـ وبكى من بكى منهم ـ ثم لما عاد وجد في منزله مروان ونفراً من بني أمية، ولم يكونوا قد شهدوا الخطبة، فلما جلس، قال له مروان: أتكلم أم أصمت؟ فقالت له نائلة: لا بل اصمت، فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها.

وفي هذا دليل على أنها شاهدت خطبته وتشاهد تبادل الرأي في مجلسه مشاهدة العارف البصير، الذي يحترم رأيه وتؤخذ مشورته ويحسب حسابه، وجاء علي بن أبي طالب يوماً على عثمان، ودخل عليه مغضباً فقال له: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلّا بتحريفك عن عقلك، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لا أراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمتابعتك. فلما خرج دخلت عليه نائلة فقالت: أتأذن لي بالكلام؟ فقال: تكلمي، فقالت: قد سمعت قول علي، وأنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء. فقال: فما أصنع؟ قالت: «تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تَرْكك الناس لمكان مروان، فأرسل إلى علي فاستصلحه، فإن له قرابة منك وهو لا يعصى».

فأخذ عثمان برأيها وفعل ما أشارت به، ولقد حاول مروان

أن ينال منها عند عثمان بعد أن سمع مقالتها فيه، غير أن عثمان صده وانتهره، وصرح بأنها أصدق من مروان وأدرى، وبقيت نائلة تساهم في العمل السياسي بالرأي والجهد والتعرض للأخطار حتى الساعات الأخيرة من حياة زوجها، حين تسلل البعض بالسيوف إلى دار عثمان ﷺ. فلما رأت نائلة ذلك منهم نشرت شعرها لكي يولوا حرمة ذلك فقال لها عثمان ﷺ: خذي خمارك فلعمري لدخولهم علي أعظم من حرمة شعرك. أي أنهم إذا لم يرعوا حرمة ذاك فلن يرعوا حرمة هذا. ثم أهوى رجل إلى عثمان ﷺ بالسيف، فانكبت عليه واتقت السيف بيدها، فقطع أناملها، فنادت غلاماً لعثمان ﷺ اسمه «رباح» معه سيف: يا رباح أعن عني هذا فضربه رباح فقتله، ثم دخل آخر معه سيف، فقال: أفرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة السيف فحز أصابعها ومضى السيف في بطن عثمان حتى قتله. وهكذا كانت نهاية ذي النورين ومجهز جيش العسرة الذي كانت تستحي منه الملائكة وأَحد العشرة المبشرين بالجنة.

ولم تتوقف نائلة بنت الفرافصة عند هذه النقطة، بل واصلت العمل السياسي في إطار نكبة عثمان ﷺ. ذلك أنها خرجت ومعها نسوة من قومها إلى مسجد الرسول ﷺ فاستقبلت القبلة بوجهها، ووجهت إحدى النسوة تستنهض الناس لها، فتجمعوا حولها، وقد أسدلت ثوبها على وجهها وألقت كمها في رأسها، وتوجهت إلى الناس بالخطاب، فحمدت الله وأثنت

عليه، وصلت على النبي ﷺ، ثم قالت: أيها الناس، إن عثمان ﷺ ذا النورين قتل مظلوماً بينكم ـ بعد الاعتذار ـ وإن أعطاكم الغبن، معاشر المؤمنين وأهل الملة، لا تستنكروا مقامي ولا تستكثروا كلامي فإني رزئت جليلاً وتذوقت ثكلاً من عثمان، ثالث الأركان من أصحاب رسول الله ﷺ في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الإرشاد. فكان الطبيب المرتضى، المختار حتى لم يتقدمه متقدم، ولم يشك في فضله متأثم ألقوا إليه الأزمة، وخلوه والأمة، حين عرفوا له حقه وحمدوا مذاهبه وصدقه. فكان واحد غير مدافع وخيرتهم غير منازع لا ينكر له حسن الفناء، ولا عنه سماح النعماء، إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلى رؤوس أئمة الكفر، حين ركضوا فقلدوه الأمور إذ لم يكن له فيهم نظير، فسلك بهم سبيل الهدى وبالنبي ﷺ وصاحبيه اقتدى.

امتد له الدين، واتصل به سبيل المستقيم، ولحق الكفر بالأطراف وأقام يمدكم بالرأي ويمنعكم بالأدنى، يصفح عن مسيئكم في إساءته، ويقبل من محسنكم بإحسانه، ويكافئكم بماله، ضعيف الانتصار منكم قوي المعونة لكم، فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته، آمناً جرأتكم وعدوانكم، قرأكم بعين الحق إخواناً، ورأيتموه بعين الباطل شيطاناً في أعقاب سيرة عمر بن خطاب ﷺ الذي رأيتموه فظاً وعددتموه غليظاً، أخذكم بالشدة وتخوفكم بالضرب، وكان والله أعلم بآدابكم ومصالحكم، (فللّه هو) كأن قد نظر في ضمائركم وعرف

إعلانكم وسرائركم. فحين فقدتم سطوته وأمنتم بطشه ورأيتم أن الطُرق قد انشعبت لكم، والسبل قد اتصلت بكم ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين. فعدوتم عدوة الأعداء وشددتم شدة السفهاء على التقي النقي الخفيف بكتاب الله لساناً، الثقيل عند الله ميزاناً، فسفكتم دمه، وانتهكتم حرمه واستحللتم منه الحرم الأربع، حرمة الإسلام وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام. فليعلمن الذين سعوا في أمره ودبوا في قتله ومنعونا عن دفنه: أن بئس للظالمين بدلاً، وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً، لَتَتَعَبَّدَنَّكم الشبهات ولتتفرقن بكم الطرقات ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان.

عيون الباطل وأهله

ثم قالت: إنكم في فتنة عمياء صماء، ممتدة الحيران شوهاء العيان في لبس من الأمر لهوات الشر فاغرة (أي مفتوحة)، وآيات السوء كاشرة (أي إظهار الأنياب بغرض الحرب)، وعيون الباطل خزر، وأهله شزر. نكرتم أمر عثمان وبشعتم الدّغة لتنكرن غير ذلك في غيره حين لا ينفعكم عقاب، ولا يسمع منكم استعتاب ثم أقبلت بوجهها على قبر النبي ﷺ فقالت:

أيا قبر النبي وصاحبيه عذري إن شكوت ضياع ثوبي
فإني لا سبيل فتنفعوني ولا أيديكم في منع حوبي

ثم انصرفت وهي تبكي وتُرَدِّدِ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

هذا بعض ما جاء في خطبة نائلة في مسجد رسول الله ﷺ

بعد مقتل عثمان ﷺ. ولم تتوقف نائلة بعد ذلك عن العمل السياسي في هذا المجال، فكتبت إلى معاوية بن أبي سفيان تصف دخول القوم على عثمان، وأرسلت بقميصه مضرجاً بالدم ممزقاً، وبالخصلة التي نتفها محمد بن أبي بكر من لحيته، وبإصبعين من أصابعها المقطوعة من شيء من الكف، ثم دعت (النعمان بن بشير الأنصاري) فسلمته ذلك وبعثت به إلى معاوية. أما نص الكتاب، فقد كان آية في الفصاحة والبلاغة، ودليلاً على العمق السياسي وقوة التصوير، يحلل الحوادث، ويقترح الحلول، ويشخص الأخطاء، فكان بحق من التقارير السياسية النادرة في التأريخ.

ولقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في الحوادث التي تلت ذلك، فلقد قرأه معاوية على الناس في المسجد، فحلف رجال من أهل الشام أن لا يطأوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان أو تذهب أرواحهم ثم كان ما كان مما هو معروف.

ولقد بلغ من حسن وفائها لعثمان ﷺ ما يلي: كانت من أجمل نساء العرب ثغراً، فكان يضرب المثل بحسن فمها وأسنانها، فلما قتل عثمان أخذت فهراً - أي حجراً صلداً - فدقت به أسنانها فسال الدم وتناثرت أسنانها على صدرها فبكت النسوة من حولها وقلن لها: ماذا صنعت بنفسك؟ فقالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وإني خفت أن يبلى حزني على عثمان فيطلع مني رجل على ما اطلع عثمان، وذلك ما لا يكون، والله لا قعد مني رجل مقعد عثمان أبداً.

ولقد خطبها معاوية بعد ذلك فرفضت وقالت تخاطب نفسها:

أبى الله إلا أن تكوني غريبة بيثرب لا تلقين أماً ولا أبا

وهي تشير بذلك إلى غربتها في المدينة حيث كان أهلها من بادية السماوة بالعراق ولزواجها من عثمان قصة طريفة تذكرها كتب التاريخ.

وهناك أخبار لنساء مجاهدات تملأ جوف التاريخ بالعجيب المعجب من أخبار النساء (كالزرقاء بنت عدي) التي كانت تركب جملها الأحمر وتقف بين الصفوف في معركة صفين تناصر الإمام علي وتَحُث المقاتلين على الصبر وتقول:

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فوجدها، فصبراً معاشر المهاجرين على الغصص، وامضوا إلى القتال غير ناكسين ولا متشاكسين.

ولقد استقدمها معاوية بعد أن استتبت له الأمور فقال لها: يا زرقاء لقد شركت عليًا في كل دم سفكه.

فأرادت منعه من الاسترسال في ذلك فقالت له مؤنبة: يا أمير المؤمنين مثلك من بَشَّر بِخير وَسَرَّ جليسه، فسكت عنها.

ودخلت «عكرشة بنت الأطرش» على معاوية بعد أن وُلّي الخلافة، فدار بينه وبينها هذا الحوار الذي يدل على قوة شخصيتها، وشدة شجاعتها وعمق ثباتها على رأيها، وهي صفات يفتقر إليها السياسي اليوم، ولا يصلح أمره بدونها.

قالت: السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

قال: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟

قالت: نعم إذ لا عليَّ حي.

قال: أوَلست المتقلدة حمائل السيف وأنت واقفة بين الصَّفين بصفين تحرضين الناس عليَّ، والله لقد كدت يومئذ لتفلين جيش الشام لولا قدر الله، فما الذي حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن الله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، وإن اللبيب إذا كره شيئاً كره إعادته.

قال: صدقت، وسكت عنها.

فلقد بلغ تأثير هذه المرأة السياسي أن أوشكت أن تثني أهل الشام عن رأيهم، وتدفعهم إلى التخلي عن نصرة معاوية لولا قدر الله كما يعترف معاوية بذلك. وهذه مهمة ليست بالسهلة، فعندما يصل السياسي إلى حد تغيير الاتجاهات في مثل هذه المواقف الحرجة، والساعات الحاسمة، فلأنه يتمتع بقدرات عالية، وكفاءة ممتازة، وشجاعة نادرة. وهذا ما كانت تتمتع به عكرشة بنت الأطرش حين أوشكت أن تحقق ذلك لولا تدخل القدر كما يقول معاوية.

وما قامت به عكرشة يذكرنا بما قامت به «سودة بنت عمارة ابن الأشتر» التي وفدت على معاوية بعد مقتل علي، فكانت بينهما المحاورة التالية، التي أظهرت ملامح الوعي السياسي لهذه

المرأة المتميز بالجرأة الشديدة، والثبات على الرأي.

قال: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: ألست القائلة لأخيكِ:

شَمِّر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأبدان

وانصر عليًا والحسين ورهطه واضمر لهند وابنها بهران

قالت: يا أمير المؤمنين، قطع الرأس وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسى.

قال: هيهات ليس لمقام أخيك نسي.

قالت: صدقت والله ما كان أخي خفي المقام ولا ذليل المكان، ولكنه كان كما قالت الخنساء:

وأن صخراً لتأتم الهداة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين، ألا أَعْفَيْتني مما استعفيت، فسكت عنها.

المفاوض العنيد

ولقد كانت سودة بنت عمارة ثاقبة الرأي في السياسة، ونافذة البصيرة في الزعامة، تمثل قومها وتنوب عنهم في المحافل. على الرغم مما عرف عن قومها (بني همذان) من نبل في السلوك، وبأس عند اللقاء، وكلمة عشية التدبير، حتى بلغت مكانتهم عند علي بن أبي طالب ﷺ أن قال فيهم:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمذان ادخلوا بسلام

ولقد نابت عن قومها في رفع الشكوى إلى معاوية عما لحق بهم من ظلم عماله عليهم، فكانت بينهما المناوشة الكلامية التالية التي أظهرت ما لهذه المرأة من بلاغة في القول، ورباطة في الجأش، وإصرار على الحق، يعزز ذلك إدراك كامل للهدف، ومعرفة بالحدود والأحكام.

قالت: يا أمير المؤمنين، أنت اليوم للناس سيّد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقوقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسألنا الخسيسة، ويسومنا الجليلة، وهذ (ابن أرطأة) قدم بلادي فقتل رجالي وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك وإما لا، فعرفناك.

فغضب معاوية من جرأتها عليه وتهديدها له، وقال: ويحك أإياي تهددينني بقومك، والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس حتى ينفذ فيك حكمه، ثم سكت.

وسادت بينهما برهة من الصمت المتوتر، قطعتها سودة حين أخذت تتمثل بأبيات من الشعر فتقول:

صلّى الإلٰه على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

فقال معاوية: ومن ذاك؟

قالت: علي بن أبي طالب ﷺ.

قال: ولكني لا أرى عليك منه أثراً.

قالت: بلى والله، أتيته في رجل كان قد ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانفتل عن الصلاة، وقال برقة وتلطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: اللّهم إني لهم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب عليها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا﴾ [الأعراف: 85]. إذا جاءك كتابي هذا فاحتفظ بما بين يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام، فعزله.

فقال معاوية: اقضوا لها حاجتها[1].

حقاً إن النساء في صدر الإسلام بلغن في الأدب والفصاحة والشجاعة درجة، يعجز القلم عن وصفها، ولا يخفى أن تلكم الصفات نابعة من خُلق الإسلام وتعاليمه السمحاء.... ابتعدنا عن الإسلام فأنسانا الله الأدب والخلق وحتى اللغة... فإننا كرجال نغبط هؤلاء النساء اللاتي كن قمة في الشجاعة والفصاحة والبلاغة والمواجهة.

هكذا كانت الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام. وهناك قصص عن شخصية المرأة ودفاعها عن حقوقها، ومعرفتها وجرأتها لتطالب بهذه الحقوق في عصر الرسالة، ولعلي عندما

(1) نص مقالة الشيخ الدكتور أحمد الكبيسي - العربي - العدد 239.

أَقصُّ عليك أخي القارىء هاتين القصتين، سَتبيّن لك الصفات العظيمة التي كانت تتصف بها المرأة في عهد الرسالة، ودون أن أعلق بعدها أي تعليق.

قصة امرأة ثابت بن قيس حينما قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه بُغضاً، فقال: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم، فردتها عليه (وأمره ففارقها)[1].

ونذكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي رسول الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر، فقالت: يا رسول الله، إني كنت تحت رفاعة فطلقني فبتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمٰن بن الزبير، وإنه والله ما معه يا رسول الله إلّا مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها ـ أي طرفاً من ثوبها ـ فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، فقال خالد: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟ فلا والله ما يزيد رسول الله على التبسم، ثم قال لها ﷺ: «**لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته**»[2].

أي زمان كان ذلك.! وأي دولة كانت تلك؟! وأية حقوق

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5273)، و(الحديث: 5274).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 2639)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 3512).

امتازت بها المرأة في غضون ذلك العهد. امرأة تغضب من عمر وتوجّه له حديثاً حاداً وغاضباً، وحتى أنها قد خاطبته بصيغة التصغير.. هذه هي المرأة في صدر الإسلام... هكذا كانت حقوقها إنها صاحت في وجه خليفة المسلمين، أليس هذا هو الحق السياسي والاجتماعي لها؟ أي بلد شهد هذه الحرية؟

هذا وإن الإسلام قد سوَّى بين الرجال والنساء تسوية في الأحكام المتعلقة بالتصرفات المالية والشخصية. فالمرأة في نظام الإسلام تنجز لنفسها عقود البيع والرهن والإجازة والصلح والشركة والمُزارعة بحرية تامة كالرجل، كما أنها تهب وتوصي وتتصرف وتسبل السبل، وتقف الأوقاف وتعتق الأرقاء، حكمها في ذلك حكم الرجل.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

هل أن هذه الآية فيها امتهان للمرأة؟! أم هي في صالحها؟.. يقول البعض: إن المرأة في الإسلام ليست أكثر من تابع للرجل بدليل الآية القرآنية السالفة الذكر، ولكن هل فهم هؤلاء المقصود من هذه الآية العظيمة؟ حيث يقول بعض المتباكين على حقوق النساء: هذا ليس عدلاً، ولكن أمعن النظر في معنى «قام» في اللغة، ترى أنه إذا قيل: قام الرجل المرأة وقام عليها: يعني عانها، وقام بشأنها فهو إذن قائم لها أو قوّام عليها بصنوف الرعاية والمدافعة والحماية، لذا نرى من هنا أن الدين الإسلامي الحنيف ألقى فريضة الجهاد على الرجل دون المرأة، وذلك لطبيعة استعدادها للحمل والإرضاع، وما تلقاه من

ضعف وألم نتيجة ذلك، فلا يكون لديها من الطاقة ما تنهض به لرد غارة أو مدافعة عدو.. فهذا كان نوعاً مادياً من القوامة.

أما النوع الآخر المعنوي أو الأدبي فلا يعني القهر والاستبداد، فسياسة البيت تقوم على العدل والمساواة والشورى، إذ للمرأة حرية الرأي ولها حق التصرف بما لها بكل حريتها، فالإسلام يمنع ولاية الرجل على مال زوجته، وبهذا نحن المسلمون لا ننظر إلى المرأة كبضاعة أو دمية. هذا وللمرأة أن تُخاصم غيرها أمام القضاء دون تدخل الزوج، إذن (القيام) لا يمس أهليتها لِلمُلك ولا أهليتها للتصرف التام في مالها الخاص، وإذا لم تمتد هيمنة الرجل إلى حرية الدين، أو إلى حرية الرأي، أو إلى حرية التصرف في أموالها، أو إلى المساواة بينها وبينه في الحقوق، فماذا يخيف المتباكين من قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34].

ثم إن من أهم خصائص القوامة المثلى رجحان العقل على العاطفة، وهذا الرجحان متوفر في الرجال بصفة عامة أكثر من توفره في النساء، لأن النساء بمقتضى ما هن عليه مؤهلات له من إيناس للزوج وحنان عليه، وأمومة وصبر على تربية الطفولة، إذ تترجح لديهن العاطفة على العقل، وهنا لا بد أن نشير إلى أنه لن تكون هناك قوامة مثلى لأي مجتمع إنساني صغيراً كان أم كبيراً، إذا كانت العاطفة فيه هي الراجحة على العقل. هذا ولئن كان بعض الرجال تتحكم بهم عواطفهم أكثر من عقولهم،

وبعض النساء تتحكم بهن عقولهن أكثر من عواطفهن، فذلك أمر نادر لا يصح أن تتغير من أجله قاعدة عامة. ويقول مؤلف كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) حول القوامة ما يأتي:

ومن المرجِّحات إسناد القوامة في الأسرة إلى الرجل، لأنه هو المسؤول في نظام الإسلام عن النفقة عليها، ومسؤوليته عن النفقة على أسرته تجعله أكثر تحفظاً واحتراساً من الاستجابة السريعة للشهوات العابرة، والانفعالات الحادة الرعناء، بخلاف المرأة في ذلك، لأنها بحكم عدم مسؤوليتها عن النفقة وعن السعي لاكتساب الرزق يقل لديها التحفظ والاحتراس، وتكون في أغلب أحوالها ذات استجابة سريعة لشهواتها وانفعالاتها، التي قد تتطلب منها نفقات مالية باهظة، أو تدفعها إلى الشحّ المفرط، ومن أجل ذلك أيضاً كان الرجل أصلح من المرأة لوظيفة القوامة في الأسرة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين السببين المرجحين حينما أعلن أن الرجال قوامون على النساء، فقال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 34].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: 228].

فالرجال... **أولاً**: يمتازون برجحان العقل على العاطفة، كما جاء آنفاً. **ثانياً**: وهم مسؤولون عن النفقة على أسرتهم،

وهذان سببان يجعلان الرجال أصلح للقيام بوظيفة القوامة من النساء، بينما نجد النساء أصلح من الرجال للقيام بوظائف اجتماعية أخرى جعلهن الإسلام المسؤولات عنها والمكلّفات بها.

وأولى من القوامة في الأسرة القوامة العامة، سواء أكانت إمارة أو رئاسة أو خلافة أو نحو ذلك، فالرجال بصفة عامة هم الأصلح لتحمل مسؤوليات القوامة العامة، والأقدر على إدارتها وتدبير شؤونها، وهذا هو ما اختاره الإسلام في نظامه للمسلمين.

فلو فرضنا أن القوامة كانت للنساء، فكان عندئذٍ على المرأة إعانة الرجل والعائلة، وأن تقوم بشأن الأسرة وبكافة صنوف الرعاية والمدافعة والحماية.. وكانت في تلك الحالة تقوم القيامة على الدين الإسلامي، ويقولون: المرأة المسكينة الرقيقة الحنونة الضعيفة، كيف أُلقيت عليها هذه الأعباء، ولماذا لم تُلْقَ تلك الأعباء على الرجال..

ويضيف الكاتب أيضاً: أما من الناحية الفكرية، فلا يخفى على أحد أن الحكمة في المجتمعات الإنسانية، تقضي بأن يكون لكل مجتمع صَغُر أم كَبُر قَيِّمٌ يقوده ويدير شؤونه، حماية من الفوضى والتصادم والصراع الدائم. والأسرة إحدى المجتمعات التي تحتاج إلى قيِّم منها تتوافر فيه القوامة بشكل أمثل.

ومعروف لدى أهل الفكر في مسألة القوامة داخل الأسرة بأن هناك مجموعة من الاحتمالات:

1 ـ أن يكون الرجل هو القيّم في الأسرة باستمرار.

2 ـ أن تكون المرأة هي القيّم في الأسرة باستمرار.

3 ـ أن يكون كل من الرجل والمرأة قيّمان على سبيل الشركة المتساوية.

4 ـ أن يتناوبا القوامة وفق قسمة زمنية.

5 ـ أن يتقاسما القوامة، بأن يكون لكل منهما اختصاصات يكون هو لقيِّم فيها.

وإذا ما أخذنا بالشركة في القوامة، سواء أكانت جزئياً، أم في كل شيء وفي كل وقت، على سبيل التناوب الزمني، أم كانت على سبيل التقاسم في الاختصاصات، فإنها ستؤدي حتماً إلى الفوضى والتنازع، ورغبة كل فئة بأن يعلو على صاحبه ويستبد به، ما لم يكن شيء من ذلك برأي صاحب القوامة الفرد، وطوعه واختياره، وبدافع من التفاهم والتوادّ والتراحم بين الزوجين.

وقد أيَّدت تجارب المجتمعات الإنسانية فساد الشركة في الرياسة، ولذلك نلاحظ تركز المسؤولية الكبرى في رئيس واحد، لدى أي نظام اجتماعي من الأنظمة التي عرفها الإنسان، ولو كانت تتَّسم بسمة القيادة الجماعية، وعمل الجماعة القاعدة لا يعدو أن يكون عملاً أقرب إلى المشورة منه إلى ممارسة السلطة سواءً أكانت المشورة ذات طابع إلزامي أم غير إلزامي،

لأن من تتكرر بيده السلطة الفعلية يستطيع أن يجعل رأي الأكثر موافقاً لما يريد.

ويعود الكاتب السالف ذكره ليقول:

ويحاول أعداء الإسلام خداع الأجيال المسلمة لا سيما الفتيات المسلمات، إذ يقذفون شبهاتهم الظالمة الآثمة فيغمزون الإسلام بأنه لم يسوِّ بين الرجال والنساء في مسألة القوامة، مع أن ما يريدون اتخاذه مغمزاً هو في حقيقة أمره من مفاخر الإسلام الفكرية والواقعية ومن أمجاده التشريعية، التي ساهمت في منح الشعوب المسلمة في عصورها الذهبية سعادتها واستقرارها ورغد عيشها.

في الواقع أنا لا أعلم هل بالإمكان أن يُكره النجار ليعمل عملاً كهربائياً؟ وهل يمكن أن نكره الخياط ليقوم بعمل الحداد؟ إن ذلك يعد من المستحيلات.

وما مثل الذين يحاولون أن يسوّوا بين المرأة والرجل في كل وظيفة من وظائف الحياة، إلا كمثل من يحاول أن يسوّي بين أعضاء الجسد الواحد في وظائفها الجسدية والنفسية، فيكره الأيدي مثلاً على أن تساعد الأرجل في المشي، دون أن تقوم ضرورة لذلك، ويريد للأرجل أن تشارك الأيدي في صناعات الكتابة والخياطة، وأعمال البنان المختلفة، ويريد للفكر أن يحب ويشتهي، ويريد لشهوات النفوس أن تعقل وتفكر، ويتحسَّر على العيون لأنها لا تسمع، وعلى الآذان لأنها لا تبصر وتهفو نفسه إلى التلاعب بطبائع كل عضو من الأعضاء، بغية أن يكون له

خصائص الأعضاء الأخرى، إلى آخر هذا العبث الذي يعتبره العقلاء ضرباً من الجنون.

أفلا يجب على رجالنا ونسائنا وفتياننا وفتياتنا أن يعودوا إلى النظر السديد، والرأي الرشيد، ويبتعدوا عن كل عبث وهراء، وثرثرة وافتراء، بعد أن يكتشفوا أغراض المضلِّلين، ويعلموا أن أعداء الإسلام قد مهروا في تزوير الحقائق لصد المسلمين عن دينهم، وسلبهم كنوز مجدهم وقوّتهم؟؟...

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

نعم إن هذه الآية الكريمة تجعل رئاسة الأسرة للرجل دون المرأة، حيث هو من مقتضى العقل وطبيعة الأشياء. فالرجل إليه يُنسب الأولاد، وهو المسؤول عن نفقتهم ـ طعامهم وكسوتهم وجميع متطلبات الأسرة ـ أضف لذلك رعاية شتى أمورهم وشؤونهم خارج البيت، وهو المدبّر للمسكن، عليه إعداده وحمايته ونفقته، إذن للرجل عليها درجة بكل هذه المسؤوليات الكبيرة التي في الواقع لا حدود لها، فإذا اقتضت طبيعة الوضع أن تكون رئاسته له دون المرأة، فهي رئاسة المسؤوليات وليس التحكم الذي يجور على العدل والمساواة والشورى.

وإن من أُولى مظاهر الرياسة: أن المرأة تنتقل من بيت أهلها إلى بيت زوجها فتتبعه في الإقامة والسكن، فالرياسة إذن ما هو إلّا امتياز نشأ للرجل في مقابل التبعات الكثيرة والاختصاصات الواسعة المسندة إليه، وليس فيها إلغاء إرادة الزوجة أو إهدار شخصيتها أو المسّ بحقوقها، أضف إلى هذا

كلّه رابطة الزوجية التي تربط غالباً بين إلفين متحابين يتعاطفان بمشاعر المودة والرحمة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21] ويؤثران أولادهما على أنفسهما، ويُؤثر أحدهما الآخر على نفسه وصحته وراحته ويخفف الرجل عن زوجته كلما استطاع، وتَحمِلُ المرأة أعباء إضافية بمحض إرادتها ومحبتها ورغبتها في عون زوجها دون حكم العدل والمساواة والشورى، إذن هذه هي علاقة الزوج وزوجته في الإسلام.

ويكفيني أن أذكر عن بعض الدراسات الحديثة جداً عن وضع المرأة في الغرب ليتوضّح ما أروم إليه، وأبدأ بنقل جزء من دراسة بريطانية نشرت حديثاً وهي كالآتي[1]:

تدل نتائج هذه الدراسة على حجم الضغوط التي تتعرض لها المرأة العاملة عموماً، سواء في البيت أو في العمل. وهي تتّسق مع دراسات أخرى أجريت في أمريكا وأوروبا، وأظهرت أن المرأة لم تعد متحمسة للعمل خارج البيت كما كانت في السابق، وذلك على ما يبدو بعدما اكتشفت أن عملها خارج البيت لا يعفيها من مسؤولياتها الثقيلة داخل البيت، وأن الوضع الجديد لم يغير كثيراً من الطبيعة الاتكالية للرجل.

إن مدى سطوة المال وأثره على الإنسان وبلوغه حدوداً أبعد غوراً في التأثير في مقدرات البشر الاجتماعية، ألقت على المرأة هذا الكائن الرقيق والحنون أن تُلقى عليها أعباء مضاعفة

(1) مجلة الصدى: يناير 2006، ص: 62.

لا تتحملها وهي فوق طاقتها، فمن الذي ظلم المرأة؟

سيطر المال في عصرنا الحالي ـ مع الأسف ـ على المجتمعات كثيراً والمثال الآتي خير دليل على مدى هذه السيطرة، حيث أن المرأة الرقيقة هي دوماً الخاسرة في مجتمعات الغرب، ومع الأسف قد امتدت هذه الظاهرة إلى شرقنا، وقد كُتِبَ في المجلة الآنفة الذكر أنه: (قبل أسابيع نشرت صحيفة محلية ناطقة بالإنكليزية تحقيقاً عن معاناة الموظفات الحوامل في القطاع الخاص بالإمارات، حيث تبيّن أنّ العديد منهن تسلمن خطاب الطرد بمجرد اكتشاف رب العمل أنهن حوامل، باعتبار أن الحمل يتناقض مع التفاهم المبدئي الذي تم التعيين على أساسه والذي يقضي بعدم الحمل طوال فترة العقد، وقد دخل الأمر دائرة الجدل العام، وراحت معظم الآراء تصف الموضوع على أساس أنه اعتداء على إنسانية المرأة وخصوصيتها، وباتت بعض تلك الآراء تشكو بأن قرارات الحمل والإنجاب في زماننا لم تعد تتخذ في غرف النوم، بل في مجالس الإدارة. هذه المشكلة ليست محلية تماماً، بل إن ما يدور في أسواقنا المحلية ما هو إلّا انعكاس لهيمنة السوق في عالم اليوم، ففي بريطانيا أفادت دراسة صدرت مؤخراً بأن أكثر من مليون امرأة يواجهن الفصل من أعمالهن بسبب الحمل في السنوات الخمس المقبلة

وأشار التقرير الذي أصدرته مؤسسة الفرص المتساوية إلى أن سبعاً من كل عشر نساء في بريطانيا يعانين الاستئساد والتنمر

والتهديد بالبطالة بسبب الحمل، ومع ذلك فهن يعانين بصمت.

وتفقد النساء اللاتي يتم طردهن بسب الحمل أكثر من 21 مليون جنيه إسترليني سنوياً كتأمينات خاصة بالأمومة، بينما يكلف استبدال أولئك النساء 126 مليون جنيه كخسارة يتحملها الاقتصاد).

إذن هكذا تُعطى للمرأة حقوقها ونحن في بداية القرن (21).. هل يُعد ذلك تقدماً؟ وهل بالإمكان أن نقنع ربّ العمل على منح النساء أثناء حملهن رواتب عند غيابهن عن العمل؟ سأترك الإجابة على ذلك للقارئ العزيز.

حرام أن تعامل المرأة الحنون هذه المعاملة، وهي لا تدري كيف توازن بين أمور الحياة المختلفة: تربية أطفال، عمل، طرد من الوظيفة، وإلى آخره من الأمور التي تُحاصر المرأة وتضايقها.

هل في صالح المرأة أن تتكشف وتتبرج؟!

لا شك أن هذا الموضوع يحتاج نوعاً ما لمناقشة دقيقة، فلنفرض أن رجلاً متزوجاً وهو في سن الأربعين، وقد تزوج بامرأة في سن أقل من سنه بعشر سنوات، ولا يخفى على أحد أنه بالحمل والولادة وشؤون الدار ومر السنين تذبل المرأة وبذلك يذبل جمالها، ويخرج الزوج إلى خارج بيته، فحتماً يجد فتاة في سن الخامسة عشر، وتكون الفتاة حتماً في هذا السن في أكمل زينتها، ولها نضارة في أقصاها. ولكن ماذا يكون موقف

الزوج وهو يرى هذه الفتاة الصغيرة، وهي في أوج جمالها؟ لا بد أن هذا الرجل يقارن ما يراه في خارج بيته ـ كأن يكون في الشارع أو السوق ـ مع ما يراه في بيته، فتبدأ المشكلة الكبرى، وربما ستؤول الحالة في أغلب الأحيان إلى الطلاق أو فساد الرجل.

فهنا... عندما أراد ديننا الحنيف الحجاب للمرأة وسترها، أراد أن يضمن ويؤمن حياتها، فإذا كانت المرأة مستورة في الشارع وغير متبرّجة، فيجعل الزوج عندئذ لا يعرف إلا وجه امرأته، وفي ذلك الحين لا يقارن بين جمال ما يراه في الشارع والسوق وبين زوجته التي تَغَضَّنَ وجهها، وابيضَّ شعرها، إنه لا يرى شيئاً من ذلك الجمال.

هل الإسلام ظلم المرأة حينما أمرها بالحجاب أَم رحمها؟ أليس ذلك تأميناً لحياتها عندما تكبر؟ وعندما نقارن بيئتنا الإسلامية بالبيئات الغربية نرى عجباً فالمرأة في الغرب عندما تكون في سن نضارتها وكامل أنوثتها، تزلف لها وظائف راقية لا تتصورها، ولكن ماذا يحلّ بها عندما تذهب نضارتها ويذهب بهاؤها وجمالها؟ لا تلقى أحداً حولها، فينتهي كل شيء وينتهي أمرها، ونرى أن الأيام تمر وكذا الأعوام تمر، وحتى الأولاد لا يرونها ولا يزورونها.. هكذا حال من قلَّد الغرب وابتعد عن الإسلام.. كثيراً ما كنا نلتقي أنا وزوجتي، عندما كنا نتنزه في الحدائق في ألمانيا، أزواجاً كباراً في السن، وكانوا يكلموننا.. فنقول لهم: أين أولادكم؟ فيجيبون: ما رأيناهم منذ عشرة أعوام

وهم في ولايات أخرى.. هكذا الأرحام والمودة في بلاد لا تعرف الإسلام.

هل على المرأة المسلمة أن تعرض مفاتنها لغير المحارم، وأن تمشي في الطرقات العامة بهيئة لا ترضي الله ولا رسوله؟ وأن تنظر إلى الأخلاق والآداب والتعاليم الإسلامية نظرة مجافاة في التطبيق، أو ازدراء في النفس، فالمرأة بهذه التصرفات فقدت في حياتها الخاصة والعامة بواعث عفتها، وتمسكها بشريعة الإسلام، وأخذت تتبرج تبرج الجاهلية الحديثة، وهي في مضامينها وكثير من مظاهرها أخطر من الجاهلية الأولى.

علماً أن التنكّر الصفيق اليوم لفكرة تَستّر المرأة واحتشامها، إنما هو خروج على الشرائع السماوية قاطبة من ملّة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام إلى الحنيفية السمحة التي جاء بها الإسلام، وتحلّلٌ من دين الله الواحد الذي أرسله الله للإنسانية على مدى الأزمان، تحمله الرسل جيلاً بعد جيل، لبناء النفس الإنسانية على الحق والفضيلة والخير، بحيث تغدو الإنسانية المهتدية بِهدي السماء أمّة واحدة، مُنصاعة لربٍّ مَعبود واحد[1]:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 51-52].

(1) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي، ص: 57، 2004.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۞ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91-92].

ويسرني أن أذكر في هذا المجال تراجع عدد من أنصار تحرير المرأة من حجابها وحشمتها عن آرائهم القديمة في ابتذال المرأة وتكشفها واختلاطها الأهوج بالرجال.

يذكر صاحب كتاب «شخصية المرأة المسلمة ـ كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة» الدكتور محمد الهاشمي، نقلاً من بعض المجلات العربية، عن أن الدكتورة نوال السعداوي التي وقفت تهاجم الحجاب والمتحجبات زماناً طويلاً، وتدعو إلى نزع الحجاب بشراسة وعنف وإصرار، ها هي تقف اليوم لتنتقد ابتذال المرأة في الغرب وعريها الفاضح، فتقول: إنني في شوارع لندن.. أرى نساء شبه عاريات، وهؤلاء يعرضن أجسادهن كالبضاعة. الملابس لها وظيفة، وهي وقاية الجسم من العوامل الطبيعية، ولا ينبغي أن تقدّم رسائل إغراء. لو نظرت المرأة لنفسها كإنسانة، وليس كبضاعة، لما احتاجت أن تتعرى[1].

وتبيّن لنوال السعداوي بعد حين أن رفع الحجاب كان ينبغي أن يكون عن العقل، وخصوصاً عند المثقفين والمثقفات؛ فكم من نساء محجبات متوسطات التعليم يملكن عقولاً نيرة متفتحة،

(1) مجلة المجتمع الكويتية: العدد 932.

تزن عشرات من عقول بعض المتعلمات الرفيعات[1] المتبرجات، كاشفات الوجوه والرؤوس والأجساد، محجبات العقول والفِطَر والأفهام؛ ولذلك فهي تقول عن خطتها القريبة : (رفع الحجاب عن العقل من المثقفين والمثقفات)[2]. وتقول أيضاً: (أنا أعرف أستاذات وطبيبات ومهندسات يعانين من أميّة سياسية واجتماعية وثقافية)[3].

في الحقيقة لا أدري لماذا ذهبت الغيرة عن الرجال، ما أروع ما يقصه الكاتب معوض عوض إبراهيم[4] عن غيرة الديك وهو حيوان حيث يقول: قصّ عليّ صديق عن غيرة الديك وقال: «إنه وجد إحدى دجاجاته في حظيرة غير حظيرتها يوماً فحملها ليردها إلى مكانها ولكنه شاهد عجباً!! رأى الديك في الحظيرة التي غادرتها ثائراً يأبى أن تعود، ويبطش بها بعنف، وحاول الصديق أن يثنيه فما أفلح فغاب بالدجاجة فترة ثم عاد، فوجد الديك ما زال مصراً يأبى عليها أن تساكنه، وعاد بها ثم رجع إليه مرة ثالثة ومعه دجاجات أُخر، فلم يَثُر الديك ولم يأب عليهن مساكنته، وظن الصديق أنه يستطيع أن يعود بالدجاجة إلى حظيرتها بعد أن هدأت الثورة وسكنت العاصفة، فلما عاد بها، عادت ثورة غيور الذكور على الدجاجة التي تركت حظيرته!!»

---

(1) أي: الحمقاوات.

(2) مجلة المجتمع: العدد 931.

(3) المصدر السابق.

(4) الإسلام والأسرة.

فالديك يغار على الدجاجة، ومن البهائم العجماوات ما يغار على أنثاه، ويفنى دونها، وفي صحيح البخاري قال عمر بن ميمون الأودي: «رأيت في الجاهلية قرداً زنا بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا!!»[1].

ويقول علي كرم الله وجهه: الرجل الكامل من أخذ من الديك ثلاثة أشياء: سخاءه وشجاعته وغيرته. ومن الغراب ثلاثة أشياء: بكوره في طلب حوائجه، وشدة حذره، وستر سفاده[2]، وما أعظم توافق غيرة الديك، وستر الغراب سفاده!!

حوار بين ابنة وأمها حول المرأة

البنت: هل أنت يا أمي من شقائق الرجال؟

الأم: نعم.

البنت: ما دليلك؟

الأم: 1 ـ الآيات القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1].

2 ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

3 ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

---

(1) إرشاد الساري، ج8، ص: 122 ـ 123.

(2) السفاد: الجماع.

البنت: يعني ذلك أن الله تعالى يعلن أن الأصل التكويني للناس ذكوراً كانوا أم إناثاً أصل واحد. ولكن الغريب قبل حوالي 1400 سنة أعلن الإسلام هذه الحقيقة، في الوقت الذي لم تكن المرأة فيه إلّا مخلوقاً للمتعة أو الخدمة عند مختلف أمم الأرض.

الأم: نعم، إنه دليل كافٍ في لإثبات أن الإسلام شريعة ربانية تحكم بالعدل.

البنت: ما المقصود بالآية الأخيرة الآنفة الذكر؟

الأم: هذه الآية تكريم عظيم من الباري ﷻ، فهنا معنى السكن الدّال على أنه بحكمته قد جعل في المرأة من الخصائص ما يحببها لنفس الرجل حتى يسكن إليها.

البنت: كيف كان واقع المرأة في الجاهلية؟

الأم: كان واقعاً يرثى له بحق، إذ كانت المرأة عرضة للتسخير والإهانة والحرمان من جهة، ومحل لمتعة الرجل مع احتقار وازدراء من جهة أخرى. ولم يكن حالها في كثير من أمم الأرض وشعوبها بأحسن من حالها عند الجاهلية من العرب. وهذا ما جعل العرب الجاهليين يكرهون الإناث من مواليدهم كراهية شديدة، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً من شدة ألمه، كاظماً غيظه لأنه لا يجد من ينتقم منه. وكان بعضهم يتخلص من الأنثى التي ولدت له واستأمنه الله عليها، بأن يدسها في التراب وهي على قيد الحياة فيقتلها.

البنت: ما هو موقف الدين من ذلك؟

الأم: لقد صوّر القرآن هذه الحالة التي كان عليها العربي قبل الإسلام بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 58-59].

البنت: سبحان الله.. إنهم كانوا يفرقون بين الذكر والأنثى هذا التفريق وهما شطرا النفس الإنسانية دون أن يكون لهم في ذلك سند من العقل أو سنّة الحياة وطبيعتها؟!

الأم: يا ابنتي.. لو تبصّروا قليلاً لعرفوا أن حكمة الله وقاعدة التكوين اقتضتا أن تنشأ الحياة بالمخلوقات من كلّ زوجين اثنين، ذكر وأنثى، حيث قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13].

البنت: ما هي الخطوة الأولى في مسار تحرير المرأة عندما قرر لها الإسلام ذلك؟

الأم: حديث رسول الله ﷺ: «**لا يقولن أحدكم عبدي وأَمَتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتايَ وفتاتي**»[1]، لذا فهنا وبهذا طارت المرأة فرحاً،

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 5835)، و(الحديث: 5836).

وتاقت لمشاركة أخيها الرجل في إعمار الحياة والنبوغ ومن يستنطق التاريخ يُنبئه بتفوق المرأة في مجالات متعددة.. فخديجة، وفاطمة، وأسماء، ونسيبة، وسمية، والخنساء، أفضل من رجال كثيرين.

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير للهلال فخر.

هكذا إذن يتساوى المرأة مع الرجل.

البنت: هل بمقدار صلاح المرأة في الأسرة يكون غالباً صلاح النشئ والذرية فيها، وبمقدار فسادها يكون غالباً فسادهم؟

الأم: نعم، لأن المرأة تستطيع أن تكون ذات أثر فعّال ـ مرشد أو مفسد ـ في تكوين أخلاق الأطفال الصغار وطبائعهم وعاداتهم أكثر من الرجل بكثير.

البنت: ولكن ما هي الأسباب؟

الأم: المرأة وهبها الله عاطفة متدفقة، ولين في الطبع، وقابلية للاندماج والمشاركة في أمور الصغار على مقدار طبائعهم ونفوسهم مما له أثر كبير في اكتساب حبهم وإحراز ثقتهم، حتى يتخذونها قدوة لهم في أقوالها وأعمالها وأخلاقها وسائر تصرفاتها.

البنت: ولكن هل المرأة الجاهلة قادرة على تكوين مثل هذه الأسرة؟

الأم: صدقت، لهذا يجب أن تكون المرأة متعلمة، ومحفوفة بتربية إسلامية حسنة وإلّا حال الأمر دون ذلك.

البنت: لماذا دعا الله الإنسان للعلم منذ اللحظات الأولى التي بدأ بها إنزال تعاليم الإسلام؟

الأم: العلم هو الطريق إلى معرفة الله والإيمان به، والطريق إلى معرفة الأحكام الدينية التي يكلف بها الإنسان ذكراً أم أنثى، فكان من المحتم على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ما يهديه إلى هذه الأمور والمسؤول عنها مسؤولية شخصية أمام الله.

البنت: غريب هذا الأمر! ففي أي مذهب من مذاهب العالم المتحضر مسؤولية العلم تتناول بشكل شخصي كل إنسان لديه ما يستطيع أن يتعلّم به ذكراً أم أنثى، ولكن هل هناك مسؤولية أدق وأشدّ وأحزم من هذه المسؤولية التي أناطها الإسلام بكل إنسان؟

فلا عجب بعد هذه الموجبات لإصلاح المرأة علماً وعملاً وخلقاً أن تكون مربية فاضلة.

ولكن هل لك من أمثلة على ذلك في صدر الإسلام؟

الأم: الإسلام حرص على تعليم المرأة، فهذا نبينا ﷺ كان قد خصص للنساء أيّاماً يجتمعن فيها، ويعلّمهن مما علمه الله، إضافة إلى الأيام التي يحضرن مع الرجال، ليتزودن من العلم ما يخصهن، ويتعلق بشؤونهن، مما ينفردن به عن الرجال، بمقتضى تكوينهن الجسدي والنفسي.

البنت: إذن نستطيع أن نقول الآن: إن النساء المسلمات في الصدر الإسلامي كنّ متلهفات لمعرفة أمور دينهن، وتبيين

مشكلاتهن الخاصة وبذلك كأنهن كن يذهبن إلى المدرسة، وإن لم تكن هناك مدارس بالمفهوم الحالي.

الأم: نعم صدقت، تشبيه صحيح، ومطابق لما تقولين، بارك الله فيك يا بنيتي.

البنت: الغريب لي هو أنه في وقتنا الحاضر هناك قرى لا توجد فيها مدارس، فكيف قبل أكثر من 1400 سنة كانت هناك هذه المدارس - إن صح التعبير - ؟

الأم: صدقت يا بنتي، فأنت حقاً ذكية في أسئلتك!

البنت: وهل كن الصحابيات في ذلك الزمان جريئات في السؤال عما يتعلق بأحوال النساء وخصائصهن؟

الأم: نعم... صحابيات الأنصار بلغت الجرأة فيهن إلى درجة بحيث أثنى الرسول ﷺ عليهن، ودعا لهنّ بالرحمة. عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنَعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»[1].

البنت: أخيراً أنا معجبة بهذا المستوى الرفيع لسياسة الإسلام التعليمية، فهل يعد تبيان هذه الحقائق كلاماً يضلّ به أعداء الإسلام الناس في موضوع تعليم المرأة، إذ يحاولون أن يصوروا الإسلام بغير صورته الحقيقية؟ وهل بعد هذه التسوية التامة بين الرجال والنساء في طريقَي العلم والعمل يظل رغاء

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 748)، و(الحديث: 750)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 316)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 642).

المشوهين لصورة الإسلام الرائعة يؤذي الأسماع بما تنفر منه الطباع؟

تساوي الرجل والمرأة أمام التكليف والجزاء

يقرر الإسلام مبدأ التساوي بين الرجال والنساء، وليس كما يدَّعي أعداء الدين أن القرآن هضم حقوق المرأة، في الوقت الذي يخاطب المرأة بصفات هي حقاً قمة من الأخلاق والطهر، وإنه يخاطبها بما يخاطب الرجل أمام التكليف الشرعي والجزاء الأخروي دونما أي فارق في ذلك، ويكفي أن نُورد الآيات التالية لنبين ذلك:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: 195].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 30-31].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19].

﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الفتح: 5-6] والآيات في هذا كثيرة[1].

هكذا سوَّى الإسلام بين الذكر والأنثى في حق الحياة،

(1) استفدت في سرد الآيات من كتاب د. محمد بلتاجي 2000.

وحرَّم التعدي على هذه الحقوق. وقد دعا رسول الله ﷺ الرجال والنساء - على قدم المساواة - للإيمان به، فكان من السابقات إليه خديجة بنت خويلد وسمية بنت خياط (أم عمار) زوجة ياسر الذي كان (أول شهيد في الإسلام)[1]. كما كان من السابقين إليه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ﷺ.

(1) أسد الغابة (7/ 152)، والاستيعاب (4/ 1864).

opeikandl.com